بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة ﴿إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ (٣)

لو أقسم على الله لأبره

بقلم الشيخ :

أبي عبد العزيز طالب بن عمر

ابن حيدرة الكثيري

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

* توزيع فاعل خير .

الحمد لله الواحد الأحد، والشكر لله العزيز الصمد، أحمده ربي سبحانه حمد السرمد، وأشكره عز وجل شكر من وحّد، وأسأله سبحانه لنا جميعاً نعيماً لا ينفد، وإيماناً لا يرتد، ومرافقة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم في أعلى جنة الخلد .

يا رب حمداً ليس غيرك يُحمدُ *** يا من له كل الخلائق تصمدُ

أبواب كل مُمَلّك قد أُوصدت *** ورأيت بابك واسعاً لا يُوصدُ

أحبة الإيمان والعقيدة، اجتمعنا وإياكم في هذه الليلة المباركة، وفي هذا المسجد الذي جمع فتية تنافسوا في حفظ كتاب الله، وتسابقوا على مراجعة القرآن الكريم، فأسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك في جهود القائمين على هذه الدورات، وأن يجزيهم خيراً مشرفين ومدرسين وطلاباً .[1]

أيها الأكارم، حديثنا في هذا اللقاء المبارك حديثٌ عن أكرم شيء عند الله، حديثٌ عن أفضل العبادة، حديثٌ عما قال الله سبحانه وتعالى فيه وفي أهله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}البقرة١٨٦، أيُّ شيءٍ هذا الذي أحدّثكم عنه، وأعجز الناس من عجز عنه، قد حذّرنا الله من تركه، قد ذمنا الله عز وجل إن هجرناه {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ

---

[1] . أصل هذه الرسالة محاضرة ألقيت في مسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسيئون، إبان الدورة الثانية لإكمال وحفظ القرآن الكريم صيف ١٤٢٧ هـ .

عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}غافر ٦٠، إنه الغنى لمن اشتد به الفقر، إنه العلاج لمن طال به المرض، إنه النصر لمن استبعد واستبطأ النصر، إنه الهداية ـ معاشر الكرام ـ لمن حارت عليه سبلها، وتغلقت عليه أبوابها، ألم تسمعوا نداء الله سبحانه: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم) فنستغفر الله الكريم رب العرش العظيم، نستغفر الله من ذنب النهار، ونستغفر الله سبحانه وتعالى من ذنوب وخطايا الليل .

أيها المؤمنون عباد الله، أعلمتم عن أي شيء نتحدث ؟ أو علمتم لأي شيء اجتمعنا في هذا المكان ؟ إنه حديث عن الدعاء، إنه حديث عن صدق الرجاء، إنه حديث عن الاتصال بالله، عن إسلام الوجه له بالمناجاة، إنه حديث تحت عنوان: **لو أقسم على الله لأبره .**

ما معنى هذا العنوان ؟ ومن هم المقصودون بهذا الكلام ؟

إن هؤلاء أقوامٌ يقسم الواحد منهم على الله أن يفعل أو لا يفعل؛ فيجيب الله دعاءه، ويبر الله قسمه، ويوفي له بيمينه، أقوام بلغ منهم الصدق منزلة عظيمة، حتى أصبح الواحد إذا رفع كفيه إلى الله ما رجعت خائبتين، حتى أصبح الواحد

يقسم على رب العزة سبحانه، ويبر الله القسم، ويصدق الله سبحانه وتعالى اليمين، لو أقسم على الله لأبره، فأيّ شيء هؤلاء ؟ ما أخبارهم ؟ وما صفاتهم؟ أرعها سمعك، وافتح لها قلبك، عل أن يكون في القوم منا من هو في منزلتهم، لعل أن تبقى في الأمة بقايا تسير على نهجهم وتتخطى خطاهم، لو أقسم على الله لأبره، رجالٌ صدقوا الله فصدقهم الله، رجالٌ أخلصوا وجوههم لله سبحانه؛ فخلّص الله أعمالهم من الشرك والرياء والسمعة، ثم تعاملوا مع الله سبحانه في تجارة لن تبور، دعاءٌ مُجاب، وطلبٌ مستجاب، وقسمٌ على الله مبرور، قد وصفهم لنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ جاءت صفتهم في السلسلة الصحيحة، يقول بأبي وأمي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (إن من أمتي من لو جاء أحدَكم يسأله ديناراً لم يعطه، ولو سأله درهمًا لم يعطه، ولو سأله فلساً لم يعطه) أيّ رجل هذا ؟ لو أتى الواحد منا فسأله فلساً أو درهماً ما أعطاه، لكن اسمع : يقول عليه الصلاة والسلام : (إن من أمتي من لو جاء أحدَكم يسأله ديناراً لم يعطه، ولو سأله درهمًا لم يعطه، ولو سأله فلساً لم يعطه، ولو سأل اللهَ الجنة لأعطاها إياه ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره) .

رجالٌ غير معروفين، ليس لهم بيننا جاه، ليس لهم بيننا مكانة، ليس لهم عندنا منزلة، لا نعطيهم الدرهم والفلس ولو طلبوه، لكنهم عند الله كرام، لكن لهم

عند الله مقام، سبقوا بالصدق، وفازوا برحمة رب الخلق، هم المغمورون في الدنيا، لكنهم المشهورون عند الله سبحانه وتعالى في السماء .

من صفاتهم ـ أيها الكرام ـ ما رواه الترمذي وغيره من حديث أنس رضي الله تعالى عنه، يقول رسولنا عليه الصلاة والسلام : (كم من أشعثٍ أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه) رجلٌ زاهدٌ في الدنيا، زاهدٌ في ملذاتها، زاهدٌ في حظوظها وفي شهواتها، يعمل بيده، حتى اغبر جسده، وشعث رأسه، لباسه ذو طمرين: ثوبين خلقين باليين، إن رأيته لم تراه يلبس كملابس الناس، وإن شاهدته لم تشاهده يركب في مراكب الناس، لو رأته عيناك حقّرته وهو عند الله عظيم، يا ألله ! أيّ شيء هؤلاء ؟ بين أثواب الواحد منهم إيمان يهز الجبال، وفي قلب أحدهم يقين لو أرسل به سهم الدعاء لأصاب به كبد الإجابة، صدقوا الله سبحانه وتعالى فصدقهم، وأقسموا على الله فأبرّهم، ودعوا الله سبحانه وتعالى فأعطاهم .

إن من صفات هؤلاء ـ أيها الكرام ـ ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال عليه الصلاة والسلام : (رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرّه) يُدفع عن الأبواب، لو فتح باب كلام ما كلمه الناس، لو فتح باب شفاعة ما قبله الناس، لو فتح باب طلب ما أعطاه الناس، لكن لو رفع يديه إلى السماء لأجابه رب الناس،

أقوامٌ . أيها الأخوة . لا تغركم أشكالهم، ولا هيئاتهم، فموازينهم غير الموازين التي إليها تنظرون، وبها تغترون، ولأجلها تتنافسون .

مرّ رجل على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعنده رجل آخر، فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم للرجل الذي عنده في الرجل الذي مر، والخبر في الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما، قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (ما رأيك في هذا ؟) فقال : هذا . يا رسول الله . من أشراف الناس، هذا لو قال يُسمع قوله، ولو شفع يُشفّع، لو نكح يُنكح، فسكت صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم مرّ رجل آخر، فقال عليه الصلاة والسلام : (ما رأيك في هذا ؟) فقال : هذا . يا رسول الله . هذا حريٌّ إن نكح ألا يُنكح، وإن شفع ألا يُشفع، وإن قال ألا يُسمع، هذا من ضعفاء المسلمين . يا رسول الله . وهنا صحّح صلى الله عليه وسلم المفاهيم، هنا أنار لنا صلى الله عليه وسلم السبيل، قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (لهذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا) .

أخي في الله، لا تغرك زهرتهم إذا ظهروا، ولا هيئتهم إذا نطقوا، فإن المنافقين إذا تكلموا يعجبك قولهم، وتسمع لحديثهم، ويَشهد الله أنهم هم الكاذبون، فلننظر لأعمالنا، ولننظر لتقوانا وقلوبنا (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)، رواه مسلم.

عباد الله، إن من صفات هؤلاء الرجال : ما جاء في الصحيحين يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف) وفي رواية : (كل ضعيف مسكين لو أقسم على الله لأبره) هو ضعيف؛ ضعيف في قوته، ضعيف في ماله، ضعيف في جاهه، ضعيف في معارفه، لكنه قويٌّ بإيمانه، قويٌّ بيقينه، قويٌّ في توكله ودعائه .

أخي في الله، هم أقوامٌ إذا طلبوا الله أو أقسموا عليه، سبق الواحد منهم قسمُه طلبه، وطلبه قسمه، وأجابهم الله من فوق سبع سماوات، هؤلاء هم المقسمون على الله، أكرم بهم من رجال ! وأعظم بهم من أقوام ! لو كانوا فينا لنُصر الدين، ولو كانوا بيننا لرأينا بركة الدنيا تجري من بين أيدينا وأيماننا، وأعظم من ذلك بركة الدين، هؤلاء هم المقسمون على الله .

أولهم : رجلٌ أقسم على الله تعالى بالحسنيين، دعا بحسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة، وثانيهم : رجلٌ أقسم على الله تعالى أن يجدع أنفه وأذنه، والثالث: هو الرجل المقنع الذي ثار في جوف الليل، منهم الرجل والمرأة، وفيهم من سبق بعبادة، وفيهم من سبق بعلم وخلق، وفيهم من سبق بتضحية وجهاد، منهم الشاب الذي يتوقد إيماناً وصدقاً عند اللقاء : نعيم بن مالك بن ثعلبة عرفتموه أو لم تعرفوه، علمتموه أو لم تعلموه، يكفيه أن الله علمه وأحبه، وأكرمه وقرّبه، جاء هذا الشاب إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم أحد، ويوم أحد كان الشباب يريدون أن يخرجوا إلى خارج المدينة لقتال المشركين، ونزل

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على طلب الشباب، يوم أن كانوا أكثر الناس، وجاء هذا الشاب إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقال : يا رسول الله، اخرج بنا نقاتل عدو الله، يا رسول الله، لا تحرمني الجنة، والله لأدخلن الجنة، يا رسول الله، لا تحرمني الجنة، والله لأدخلن الجنة، على أيّ شيء يقسم ؟ يقسم على الله تعالى أن يدخله جنته، قال له صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (فبأيّ شيء ؟) قال : بأني أحب الله ورسوله ولا أفر، فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (صدق) فلما جاءت المعركة، وحمي الوطيس، قفز في أتونها، وقاتل تحت ظلال سيوفها؛ حتى قُتل شهيداً في سبيل الله، صدّقه رسول الله، وبرّ قسمه الله، أيّ شيء هذا الإيمان ؟ حين يتفجر في القلوب، أيّ شيء هذا الإيمان ؟ حين تخالط بشاشته الصدور ؟ يصنع وربي المعجزات، رجلٌ أصبح في الأحياء، فأمسى في الخالدين، رجل لا تحسبوه مع الموتى، بل هو مع الأحياء الذين قال الله فيهم : {..بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ{١٦٩} فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }آل عمران١٦٩ - ١٧٠، آمنوا فعملوا، وعملوا فصدقوا، وصدقوا فطاروا، وطاروا فحطوا رحالهم في الجنة { .. فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ }محمد٢١ .

ومنهم الكبير ـ معاشر الكبار ـ منهم الذي فاته عمره، ولم يسابق إلى الخيرات، وسبقه الصالحون إلى الطاعات، لكنه تذكّر مصيره، وأعلن توبته وتقصيره، فلجأ

إلى الله ، واحتمى بحماه، وعمل من الصالحات أعمالاً ثقّلت موازينَه بصدقه، فسبق من بعده، وأدرك من سبقه، وطار مع السابقين: منهم أنس بن النضر رضي الله تعالى عنه، وما أدراكم من أنس ! تأخر عن رسولنا صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر، وأيُّ بدر ؟ غزوة الفرقان التي فرّق الله سبحانه وتعالى بها بين الحق والباطل، غزوة الفرقان التي دك الله سبحانه وتعالى بها عروش الظلم والشرك والباطل، غزوة بدر الكبرى، يوم أن مكّن الله سبحانه وتعالى المسلمين من رقاب صناديد الكفر؛ أبي جهل وعتبة وعقبة وشيبة عليهم من الله ما يستحقون، لكنه تخلف عنها، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وحسرته تسبقه، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشوقه إلى الجنة يتقدمه، فقال : يا رسول الله، إني غبت عن أول مشهدٍ قاتلت فيه المشركين، ووالله ـ يا رسول الله ـ اسمعوا للقسم، يقول: والله ـ يا رسول الله ـ لئن أشهدني الله مشهداً مع المشركين ليرين الله ما أصنع، يا ألله ! على أي شيء تقسم ؟ ماذا ستري الله ؟ وأيّ شيء ستقدمه حتى تبر بهذا اليمين العظيم، لكنها كلمة قالها وصدّقها، ويمين نطق به وبرّ فيه، وجاء يوم الابتلاء والاختبار، وجاء يوم أحد، يومٌ تناثرت فيه الأشلاء، وتقطعت فيه الأعضاء، وسالت فيه الدماء، وانكشف فيه المسلمون وأنس بن النضر يتقدم، رضي الله تعالى عنك يا أنس، يتقدم إلى الله وهو يقول : اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المشركين ـ لقيه سعد بن معاذ، فقال:

يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر؛ إني لأجد ريحَها من دون أحد، يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني لأجد ريحها من دون أحد، رجلٌ يمشي على الأرض، يشم رائحة الجنة في مسافة أقرب من مسافته إلى جبل أحد، تقدم إليها، سعى لها ، وعانقها، قاتلوه وقاتلهم، حتى قُتل في سبيل الله، فلما انتهت المعركة، بحثوا عنه فلم يجدوه، ثم وجدوه فلم يعرفوه، ما سقط ـ أيها الكرام ـ إلا بعد أن أُثخن بثمانين، ثمانين ما بين ضربة سيف، وطعنة رمح، ورمية سهم، ثمانين وهذا الأسد يقاتل في سبيل الله، ما أسقطته الضربة الأولى، ولا أخرته الرمية الثانية، ولا قتله السهم الرابع والخامس والسادس، حتى سقط بعد الثمانين، بالله عليكم أيّ جسدٍ يتحمل هذا ؟ لكنها الروح عندما تتوضأ بماء الإيمان، يشرق بها الإيمان، فتسمو إلى عالم آخر، عالم تطيع فيه الله الرحمن، وتسابق فيه إلى الجنان، جاءت أخته فرأته، فعرفته بطرف اصبعه، هذا أنس ـ أيها الأخوة ـ، هذا الذي قال وصدق، وصدّقه الله : ليرينّ الله ما أصنع، فما سقط حتى تكسرت على جسده سيوف، واعوجت في بدنه سهام، وتحطمت على صدره رماح، فرضي الله عن رجلٍ من رجال قال الله فيهم : {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً }الأحزاب٢٣، أتدرون الآن من أنس ؟ وما مكانة ابن النضر ؟ أنس هذا له خبر آخر في الصحيحين، وهذه المرة قسم آخر، لما كَسرت أخته الرُبيّع بنت النضر ثنيةَ امرأة أخرى، وجاء أهلها يطالبون بالقصاص، عرض

عليهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم العفو فأبوا، عرض عليهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم إرش الجناية فأبوا، فحكم صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالقصاص، فجاء أنس وقال : تُكسر ثنية الربيّع – يا رسول الله– ! والله لا تُكسر، فقال : (يا أنس، كتاب الله القصاص) فإذا بالله سبحانه وتعالى يُنزل في قلوب هؤلاء برّ قسم أنس بن النضر؛ فيعفون عن القصاص، عندها قال صلى الله عليه وسلم : (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره) فرحمهم الله تعالى كيف كانوا ؟ ورحمهم الله تعالى بأيّ شيءٍ وصلوا ؟ بالصدق والصفاء، والسبق والنقاء، كانوا هم السابقون إلى رحمة الله سبحانه وتعالى ورضوانه .

أيها الأخوة الكرام، لنبدأ مع أولهم :

البراء بن مالك الأنصاري رضي الله تعالى عنه : أحفِظتم هذا الاسم أم ضيعتموه، أعلمتموه أم جهلتموه، يكفيه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم شهد أنه منهم، قال عليه الصلاة والسلام : (كم من أشعث أغبر، لا يُؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك) يكفيه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم شهد له بها، قال عليه الصلاة والسلام : (رب ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك)، رضي الله تعالى عنه، هذا الأسد الهصور، وهذا البطل الصنديد، كان يبتغي للقتل مظانّه؛

فتُكتب له الحياة، كان ما يسمع بهيعةٍ للحرب إلا ويطير لها، فيصنع الله النصر على يديه .

دخل مع المسلمين في قتال المرتدين يوم اليمامة، ويوم اليمامة تحصّن المرتدون بحديقة، سُميت بـ " حديقة الموت " ما يقرب منها أحد إلا قُتل ومات، فلما سمع البراء عنها كانت التي يريد، ولما أُخبر عنها كانت التي يطلب، ما كان منه – أيها الكرام– إلا أن وضع نفسه في ترس، وقال لأصحابه : احملوني بالرماح وألقوني عليهم :

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد *** لنفسي حياةً مثل أن أتقدما

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا *** ولكن على أعقابنا تقطر الدما

فحملوه على ترسه ووضعوه على سور حديقتهم، ثم ألقوه في وسطها، فاجتمعوا عليه رضي الله تعالى عنه، لكن ما كانت روح البراء تعرف الهزيمة، ما زال يقاتلهم ويقاتلونه، ويضرب فيهم ويضربونه حتى صار إلى بابهم فضربه ففتحه، فدخل المسلمون كالسيل الجاري فحصدوا المرتدين حصداً، وقتلوهم قتلاً، وأبادوا خضراءهم، فكتب الله النصر، وأعز الله الدين، ثم بحثوا عن صانع النصر، بحثوا عن البراء بن مالك، فوجدوه قد أُلقي على الأرض، وفيه ثمانون ضربة، ثمانون ضربة لكنه ما استسلم لها، ولا انخذل عندها، جعل خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه يداويه منها شهراً حتى برئ، فلما لملم جراحه، ولما برئ من ضرباته، بحث عن موضع آخر يصدق الله سبحانه وتعالى فيه، فكانت

هناك في فارس؛ في حصن تستر، حاصره المسلمون طويلاً، حاولوا فتحه ما استطاعوا، حاولوا اقتحامه ما استطاعوا، فجاءوا إلى البراء بن مالك ، فقالوا : يا براء، إن رسولنا صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: (رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره)، وشهد أنك منهم، يا براء، فأقسم على ربك أن ينصرنا عليهم، فرفع يديه إلى السماء، واستنصر النصر بالدعاء، وأعظم إلى الله الرجاء: يا الله إلا منحتنا أكتافهم، فصنع الله سبحانه وتعالى لهم النصر، لكن أتدرون على يد من صُنع النصر ؟ على يد البراء، دار على حصنهم فوجد سرباً يدخل في جوف حصونهم، فدخل منه رضي الله تعالى عنه، فإذا هو قائمٌ بينهم، قاتلوه وقاتلهم، ضرب فيهم وضربوا فيه، حتى صار إلى بابهم فضربه ففتحه، وفتح الله على يديه، قتل منهم مائة رجل، ثم صنع الله على يديه هذا النصر، وسار إلى ثالثة، يطلب القتل مظانه، يطير إلى حياة الشهداء، يرجو ما عند الله من الجزاء، واشتد على المسلمين ثالثة الانتصار، فجاءوا إلى البراء : يا براء، شهد لك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنك لو أقسمت على الله لأبرك، فأقسم على الله أن ينصرنا، فرفع يديه وقال : اللهم امنحنا أكتافهم، وامنحني شهادة في سبيلك، فكتبها الله له، وبرّه الله فيها، حسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة، هؤلاء هم المقسمون على الله ،،

أرواحنا يا ربُّ فوق أكفنا *** نرجو ثوابك مغنماً وجواراً

لم نخشَ طاغوتًا يحاربنا ولو*** نصب المنايا حولنا أسواراً

أعلمتم عمن نتحدث ؟ عن أناسٍ صدقوا الله سبحانه وتعالى فصدقهم، عن أقوامٍ لا يرفعون أكف الضراعة إلى الله إلا أمطرهم الله سبحانه وتعالى ببركات الإجابة، عن أقوامٍ لا ترتفع كلماتهم إلى السماء إلا فُتح ما بينهم وبين الرحمن سبحانه وتعالى، منهم المقعد والأعمى، منهم من ضعفت قوته، وتعطلت حواسه، لكن لا تنظروا إليها، انظروا إلى اليقين الذي يوقد في الصدور، انظروا إلى الإيمان الذي يصنع المعجزات، ويرضي الرب الغفور، هم رجالٌ وأيّ رجال ؟ ساروا إلى الله فوصلوا، وابتغوا ما عند الله فوجدوا، ونحن ـ أيها الأخوة ـ كم من رجلٍ فينا يُشار إليه بالبنان أنه من الصالحين، وقد أحبط الله عمله وأخزاه، كم من رجل من بيننا ـ أيها الأخوة ـ يُشار له بالبنان أنه من المتقين، وقد أوبق الله دنياه وأخراه، كم من رجلٍ فينا مغمور لا يعرفه أحد، لكن يكفيه أن قد علمه وشرّفه الواحد الأحد، ابحثوا عنهم ـ أيها الكرام ـ ليس بموازين الدنيا بل موازين التقوى، ليس بمثاقيل الدنيا بل مثاقيل الإخلاص، رأيتَه يقرأ فظننت أنه خاشع، رأيته يبكي فظننت أنه صادق، والله سبحانه وتعالى أعلم بالذي في الصدور، والله سبحانه وتعالى هو الذي سيبلي السرائر يوم تخرج الفضائح، فنعوذ بالله من الفضيحة، يوم يُبعثر ما في القبور، ويحصّل ما في الصدور، ابحثوا عنهم ـ أيها الكرام ـ ابحثوا عن رجالٍ قدّموا عظيم العمل، ولم يطلبوا من أحد جزاءً ولا بدل، ابحثوا عن رجالٍ يقدمون عظائم الأمور، ولا يريدون من أحدٍ جزاءً ولا شكور، أقوامٌ لهم في الخفاء أعمال، ولهم مع الله سرائر، لم يُعرفوا، ولم يُذكروا، ولم

يُشكروا، لكن يكفيهم إذا صحت لهم من الله الضمائر، منهم المقعد الذي جاء رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقسم ليدخلن الجنة، ليدخلن الجنة بعرجته " عمرو بن الجموح رضي الله تعالى عنه " جاء أبناؤه يشتكون أباهم إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يا رسول الله، يريد أن يقاتل وهو معذور، قد عذره الله ونحن نكفيه، فقال : (مالك؟) قال : يا رسول الله، والله لأطئن بعرجتي الجنة، فقال ﷺ: (أما أنت فقد عذرك الله، وأما أنتم فما عليكم أن تتركوه عل الله سبحانه وتعالى أن يدخله الجنة) فلما جاءت الساعة الحمراء، وتطاير شرر العيون، وتساقطت الأشلاء، وشُقت البطون، قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) فقام بعرجته لها، وطمع على عاهته بها، قال : يا رسول الله، أرأيت إن قتلتُ اليوم في سبيل الله، أأطأ برجلي هذه صحيحة الجنة ؟ قال : (نعم) فقام رضي الله تعالى عنه، وسابق منا الأصحاء، ونافس فينا الأقوياء، حتى قاتل طلباً للجنة، حتى قُتل براً بقسمه وبرّه الله، قُتل شهيداً في سبيل الله، جاءه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قلّب النظر فيه، ثم قال : (لكأني الآن أنظر إليه وهو يمشي برجله صحيحة في الجنة، لكأني الآن أنظر إلى رجله وهو يمشي بها صحيحة في الجنة) ماذا كان بينهم وبين الله إلا الصدق، وما الذي بيننا وبين الجنة إلا أن نصدق الله، اتقوا الله – معاشر الأخوة – واصدقوا الله سبحانه وتعالى في أعمالكم، واصدقوا الله سبحانه وتعالى في أقوالكم، فإن بين يدينا يوماً عظيماً

{هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} يونس ٣٠، فكونوا من أهل الحق، وفوزوا بالصدق، وتنافسوا بالسبق، واسعوا إلى مرضاة الله بشوق .

ومنهم : أبو معاوية بن الأسود رحمه الله تعالى، دخل أتون المعارك وقاتل صناديد الكفر، وحاصر المسلمون حصناً، وعلجٌ من الكفار لا يرمي بسهمٍ إلا أصاب، فلما أعجزهم جاءوا إلى أبي معاوية، فقالوا: يا أبا معاوية، إن علجاً قد أثخن في المسلمين الجراح، وإننا نناشدك بالله أن تكفينا إياه، فقال : استروني عنه، فحملوه حتى بلغه وحاذاه وهو في حصنه، فقال : أعطوني سهماً، فأعطوه سهماً، فوضعه في قوسه، وقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المذاكير، فرفع يديه بالدعاء، ووجه وجهه للسماء، وقال: اللهم إنك قد سمعت ما أرادوا، اللهم فأعطني ذلك، ثم رمى فأصاب السهم مذاكيره، وخرّ من حصنه مجندلاً كافراً إلى النار، وبئس المصير .

بقي أن أقول لكم كلمة : ألا فلتعلموا أن أبا معاوية كان رجلاً ضريراً لا يرى بنور عينيه، ولكن رأى بنور بصيرته، وجّه سهام الدعاء إلى الله، فأصابت عند الله الإجابة، فحقق الله سبحانه وتعالى له نصر المسلمين، وأنت ـ ولو كنت أعمى، ولو كنت مقعداً ـ فاصدق الله سبحانه وتعالى يصدقك، اصدق الله سبحانه وتعالى ينصر بك الدين، اصدق الله سبحانه وتعالى تبلغ بذلك جنة رب العالمين .

معاشر الكرام، كم أعربنا بالقول ولحنا بالعمل، وإخلاصنا يحتاج إلى إخلاص، فأخلصوا تتخلصوا، معاشر الكرام، عملٌ قليلٌ بنيةٍ صادقةٍ ندخل به الجنة، لكن أين النوايا ؟ يوم أن فسدت نوايانا بالرياء والسمعة، إلا من رحم الله منا، أيها الأخوة، ليس بيننا وبين القوم إلا ما سمعتم، فكونوا معهم، وسيروا على نهجهم.

وثانيهم : عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه :

جاء عند الطبراني من حديث سعد بن أبي وقّاص رضي الله تعالى عنه قال : لما كان يوم أحد، قال لي عبد الله بن جحش : يا سعد، ألا تقوم بنا فنخلو فندعو الله، لنسمع – معاشر الكرام- كيف يكون الدعاء، ولنتعلم على من يكون الالتجاء، قلت : بلى، قال : فقمنا فخلونا عن الناس، ورفعت يدي أدعو، قلت : اللهم إني أسألك أن تمكنني من رجل من المشركين، شديد بأسه، شديد حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ترزقني الظفر عليه فأقتله وآخذ سلبه، فقال عبدالله بن جحش : آمين، ثم رفع يديه إلى السماء، وبدأ في الدعاء، قال : اللهم إني أسألك، وفي رواية الإمام أحمد أنه قال : اللهم إني أقسم عليك أن تمكنني من رجلٍ من المشركين شديد حرده، شديد بأسه، أقاتله ويقاتلني، ثم يجدع أنفي، ويقطع أذني، فإذا قمت بين يديك يوم القيامة، قلت : يا عبدي، من الذي جدع أنفك وقطع أذنك ؟ فأقول : فيك وفي رسولك، فتقول : صدقت، فقال سعد : آمين، ثم قال سعد : يا بني، كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوة أبيك، والله لقد رأيته آخر النهار وأنفه وأذنه معلقان بخيط، برّ الله

قسمه، فأجاب الله دعوته، يقول ابن المسيب رحمه الله تعالى : وإنا لنرجو أن يجيب الله آخر دعاءه كما أجاب أوله، وآخر دعائه يوم أن قال : فإذا قمت بين يديك قلت : يا عبدي، من الذي جدع أنفك وقطع أذنك ؟ فأقول : فيك وفي رسولك، فتقول : صدقت، صدقوا الله، فصدقهم الله :

يا رب إن كان يُرضيك أن تهوى جماجمنا *** على التراب فهذا الفعل يرضينا

ما تخجل الشمس إلا من مواقفنا *** وما يهاب العِدى إلا مواضينا

أسمعتم دعوته ؟ أعرفتم همه ؟ أتأملتم أمله ؟ أفهمتم أمنيته ؟ كان همه أن يرضي الله، كان أمله أن يسابق في مرضات مولاه، كانت أمنيته أن يستجيب الله هذا الدعاء، ويجيب الله هذه المناجاة، فسعى لها، وفاز بها، لم يرد ـ أيها الأخوة ـ مالاً يتكاثر به، لم يرد ـ أيها الأخوة ـ ذكراً يتفاخر به، لم يطلب ورواداً ولا نياشين، ولم يسعَ إلى جسور نصر تُصف له في الميادين، لكن كان يريد أن يكون مع الصادقين، كان يريد أن يرفع نصر الإسلام ولو فوق أكتافه، كان يريد أن يسطر نصر الدين ولو من دمائه؛ وربي ينادينا معهم : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ }التوبة١١٩، فهل نحن منهم ؟ وهل نحن معهم ؟ أجيبوا – أيها الأخوة – أجيبوا بالله عليكم، ثم قولوا لكل من لم يكن صادقاً لا يتعنى، قولوا لكل من لم يرد وجه الله بعمله لا يتعب، يكفينا رياء، يكفينا طلبٌ للثناء، يكفينا حب سمعة وظهور، يكفينا طلب للشهرة وسرور الغرور، يكفينا– أيها الأخوة – كم التمسنا التزين في قلوب الخلق، كم طلبنا

مدحهم وهربنا من ذمهم، كم سعى الواحد في صرف وجوه الخلائق إليه، ثم أحبط الله عمله إذ قام بين يديه، فاتقوا الله، فإنكم إليه صائرون، وبين يديه موقوفون، وعلى أعمالكم محاسبون، فبأيّ شيءٍ تقدمون ؟ .

أخوة الإيمان، من وجد الله فماذا فقد ؟ ومن فقد الله فماذا وجد ؟

فيا ليت الذي بيني وبينك عامرٌ *** وبيني وبين العالمين خراب

متى صح منك الود فالكلُّ هينٌ *** وكل الذي فوق التراب تراب

هؤلاء هم سلفنا، صدقوا الله سبحانه وتعالى في أعمالهم فأخفوها، وتزينوا إلى الله سبحانه بكتمانها؛ فأبقوها، كان زين العابدين رحمه الله تعالى يُبخّل؛ يبخله الناس، ما ينفق في سبيل الله، هكذا يقولون، فلما مات وجدوا أنه كان يطعم مائة بيت في المدينة رحمه الله تعالى، صدقة السر ما فُقدت إلا يوم أن مات علي ابن الحسين رحمه الله تعالى، كان الإمام الشافعي رحمة الله عليه يقول : تمنيتُ أنكم تعلمتم هذا العلم ولم يُنسب إليّ منه شيء، ما يريدون إلا وجه الله، صام داود بن هند رحمه الله تعالى أربعين سنة، أربعين سنة ما علم به أحدٌ حتى أهله؛ حتى أهله، كان يأخذ طعامه إلى السوق، فإذا صار في الطريق تصدق بالطعام، فيظن أهل السوق أنه أفطر في أهله، ويظن أهله أنه أفطر في السوق، فإذا كان وقت العشاء رجع فتعشى في بيته، أرأيتم أعمالاً كهذه الأعمال ؟ أقول : نعم صمنا، أقول : نعم تصدقنا، أقول : نعم تعلمنا وعلّمنا، لكن أين الصدقُ مع الله ؟ وأين إخفاؤنا أعمالاً لوجه الله ؟ حدثوني بأعمال سركم، لا تحدثونا بها

حدّثوا بها أنفسكم، أنجد – أيها الأخوة – من سر الأعمال ما يصير نوراً وبرهاناً إذا قمنا بين يدي الله الواحد المتعال ؟ يالله رحماك نرجو! فأيّ شيءٍ كانوا وأيّ شيءٍ صرنا ؟ رحمهم الله تعالى: الربيع بن خثيم كان عمله كله سراً، كان ينشر المصحف فيقرأ فيه، فإذا دخل عليه رجلٌ غطاه، ابن سيرين كان يضحك مع الناس، ويمزح مع الناس، فإذا صار إلى جوف رحله بكى؛ كأنما قتل جميع الناس، كان أحدهم – رحمهم الله تعالى جميعاً – يأوي مع زوجه إلى فراشٍ واحد، ويضع رأسه بجنب رأسها على وسادة واحدة، فيُبل ما تحت خده بالدموع، ولا تعلم به زوجته، كان أحدهم يقوم في الصف فتجري دموعه على خدوده، وصاحبه بجواره ما شعر بشيء، ونحن الواحد منا إذا أحس بشيء تنحنح ورفع، وأظهر واستشرف، فلنتق الله عز وجل، لنتق الله، يقول داود بن عبد الله : كانوا يستحبون أن يكون لكل رجلٍ خبيئةٌ من عملٍ صالح لا يعلم بها أحد، لا زوجته ولا غيرها، جعلنا الله وإياكم من الصادقين، وألهمنا وإياكم أن نكون مع السابقين .

أخي في الله، اصدق الله يصدقك، اصدق الله تجده تجاهك، اصدق الله، واعلم أنه لو كادتك السماوات والأرض ومن فيها لجعل الله لك من بينها فرجاً ومخرجاً .

يا شباب الإسلام، اصدقوا الله في نصرة هذا الدين، يحقق الله لكم العزة، وللأمة التمكين، اصدقوا الله عل الله أن يصنع النصر على أيديكم، لا نريد

منكم ـ يا شباب ـ أن تكونوا أعداداً لكنكم أصفار؛ لأن الله لا يبارك عمل الكذّابين، لا نريد منكم أن تكونوا دعاةً بالأقوال بدون الأفعال؛ لأن الله إنما يتقبل من المتقين، فاتقوا الله سبحانه، اتقوا الله ـ معاشر المربين ـ في هذا الجيل، اتقوا الله ـ معاشر العاملين ـ في هذه الدعوة المباركة، لنصنع شبابًا حافظ على عقله، وصان رشده، ولم يقع في وحل القات والخمر والمخدرات، شبابًا لم تحطمهم الليالي الحمراء، لم تحطمهم ليالي وسهرات القنوات، لنتذكر قول القائل فينا :

ملكنا هذه الدنيا قرونا *** وأخضعها جدود خالدونا

وسطرنا صحائف من ضياء *** فما نسي الزمان وما نسينا

وكنا حين يغشانا عدوٌ *** بطغيانٍ ندوس له الجبينا

تسير قلوبنا بالهدي طُهراً *** وما نغضي عن الظلم الجفونا

بنينا حقبة في الدهر ملكاً *** يدعمه شبابٌ صالحونا

شبابٌ ذللوا سبل المعالي *** وما عرفوا سوى الإسلام دينا

تعهّدهم فأنبتهم نباتاً *** كريما طاب في الدنيا غصونا

إذا شهدوا الوغى كانوا كماةً *** يدكون المعاقل والحصونا

شبابٌ لم تحطمه الليالي *** ولم يُسِلم إلى الخصم العرينا

وما عرفوا الأغاني مائعاتٍ *** ولكن العلا صيغت لحونا

وإن جنّ المساء فلا تراهم *** من الإشفاق إلا ساجدينا

شبابٌ لم يرقصوا على أوتار الأغاني المائعات، ولم يناموا عن صلاة الفجر سهراً خلف الأفلام والمسلسلات، ولم يتشبهوا بالنساء ليتسكعوا بعدها في الطرقات، شبابٌ لم تحطم همتهم أغنية، ولم ترق ماء وجوههم غانية، شبابٌ لم تسكن همتهم ولم تسفل مروءتهم لأجل الفوز بكؤوسٍ بالية، شباب العزة الذين ساروا إلى الله، وعرفوا مكر أعداء الله، فقاموا على الحصون حراساً، وكانوا في الخالدين نبراساً، رحمهم الله تعالى من شباب، وجعلكم فيهم ومنهم يا شباب، عصمكم الله سبحانه من الفتن، وحقق على أيديكم نصر هذه الأمة .

وأنتِ يا فتاة الإسلام، افهمي ما الذي يراد بك، أن يُسلب منك حجابك وعزتك وعفتك، فلا تصغي إلى مؤتمراتهم، ولا تنخدعي بمؤمراتهم، ويا شاب الإسلام، افهم ما الذي يُراد منك، يُراد منك أن تتخلى عن رجولتك وقوتك، فلا تصغِ إلى ترهاتهم، ولا تنجر خلف حقاراتهم، كن رجل الدين، وكن رجل العقيدة، وكن صانع النصر المفقود .

أيها الأخوة الكرام، لنكن مع هؤلاء الصادقين، ولنتشرف بالاقتداء بمن سمعتم من السابقين، هكذا كنا يوم أن كانوا رجالها، لكن كيف أصبحنا يوم أن صرنا نحن رجالها ؟

وما فتئ الزمانُ يدور حتى*** مضى بالمجد قوم آخرونا

وصار لا يُرى في المجد قومي*** وقد كانوا أئمته سنينا

وآلمني وآلم كل حر *** سؤال الدهر أين المسلمونا

فهل يرجع الماضي فإني *** أذوب إلى ذاك الماضي حنينا

دعوني من أمانٍ كاذباتٍ *** فلم أجد المنى إلا ظنونا

وهاتوا لي من الإيمان نوراً *** وقوّوا بين جنبيّ اليقينا

أمدُّ يديّ أنتزع الرواسي *** وأصنع مجداً مؤتلفاً مكيناً

هذا أنت، وهذا أنا، إذا صدقنا الله سبحانه وتعالى، قد لا يكون لنا كثير عمل، لكن بنية صادقة، نسبق بها الكثير من العمل، فرب عملٍ صغيرٍ عظّمته النية، ورب عمل كبير حقّرته النية، فاتقوا الله سبحانه وتعالى في نياتكم، واصدقوا الله سبحانه وتعالى في أعمالكم : واسمعوا خبر معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، كان يصلي مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلاة العشاء، ثم يرجع فيصلي إماماً في قومه، وذات ليلة، صلى بهم فأطال الصلاة، وكان رجل من بني سلمة يُقال له : سليم، علمتموه أم لم تعلموه، يكفيه أن الله سبحانه وتعالى علمه وبرّ قسمه، ما كان منه إلا أن تنحى وخرج من الجماعة، وأكمل صلاته ثم أخذ خطام بعيره وانصرف، فلما قضى معاذ رضي الله تعالى عنه الصلاة أُخبر عن هذا الرجل، فقال : إن هذا به نفاق، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، انطلق الشاب خلف معاذ، فلما أخبر معاذ النبي صلى الله عليه وسلم، قال عليه الصلاة والسلام للشاب : (ما حملك على هذا ؟) قال : يا رسول الله، إن معاذاً يطيل المقام عندك، فإذا صار عندنا أطال بنا الصلاة ! فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (وأنت إذا صليت

ما تصنع ؟) قال : أما أنا، فأقرأ فاتحة الكتاب، ثم أسأل الله الجنة وأعوذ بالله من النار، ولا أعرف دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (أنا ومعاذ حول هاتين ندندن) ثم قال الفتى : لكن يا رسول الله، إذا جاء القوم . وكانوا يترقبون العدو . ليعرف معاذ من أنا ؟ وجاء القوم، وعرفوا من هو ؟ شهيدًا تقبله الله مع الشهداء، وشابٌ قد رفع الله روحه إلى السماء، عرفوا من هو ؟ فإذا به الشهيد الذي تلحف بدمائه ابتغاء وجه الله، هو الشهيد الذي صنع بشهادته حياة أعظِم بها من حياة، الله أكبر ! أيّ شيءٍ هؤلاء الرجال ؟ قالوا كلمةً واحدةً لكن بروها، وثبتوا عليه حتى أدّوها، وكم قلنا من كلمات ؟ وكم رفعنا من شعارات ؟ كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعدها إذا لقي معاذاً قال : (يا معاذ، ماذا فعل خصمي وخصمك ؟) قال : يا رسول الله، صدق الله وكذبت، استشهد يا رسول الله، هي هذه . أيها الأخوة . هذه التي ندعوكم إليها عزيمة صادقة أن نصدق الله جميعاً {... فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ} محمد٢١ .

أخي في الله، أخرجها من جوفك عزيمةً تترك ما أنت فيه من المعاصي والمنكرات، وتخرج بها من الكسل والفتور، عزيمة بها تعزم على أن تقوم بطاعة رب الأرض والسماوات، وتسابق إلى الخيرات والطاعات، عزيمة رجلٍ أصرّ إلا أن يكون منهم وفيهم، كما كان هذا الشاب رحمه الله تعالى، جهله الناس، وأكرمه رب الناس، ما عرفه الخلق، لكن تقبله الله شهيداً سبحانه وتعالى .

يا أخوة الإيمان، فماذا بعد هذا نقول ؟ وعن أيّ شيءٍ نتحدث وقد ذكرنا الصادقين، إن تحدّثنا عن الإخلاص، فالإخلاص أمرٌ عظيم، الإخلاص أن تنسى رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، الإخلاص أن يستوي عندك مادحك وذامك، فإن ذموك ما أنقصت العمل، وإن مدحوك ما زدت في العمل، الإخلاص ـ أيها الأخوة ـ عجيب، الإخلاص أن تستوي أعمالك في السر وأعمالك في العلانية؛ فإذا قرأت أو صليت أو ذكرت الله أمام الناس فعلت مثلها في الخفاء بين يدي رب الناس .

لو اقسم على الله لأبره، منهم الرجال ـ كما سمعتم ـ منهم الرجال، ومنهم النساء، ومن النساء من لو أقسمت على الله لأبرها : امرأة لا أدري ما اسمها، لكن يكفيها أن الله علمها وتقبلها، امرأة لها مع الصدق خبر، ولها في السبق أثر، جاء خبرها في السلسة الصحيحة للشيخ الألباني رحمه الله تعالى : أن رجلاً من الطفاوة دخل سوق المدينة، يشتري له تمرًا، ثم قال : أنطلق فأسمع ماذا يقول؟ فأتى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يشير إلى بيتٍ ويقول: هذا البيت كانت فيه امرأة، خرجت للغزو في سبيل الله، وتركت ثنتي عشرة عنزاً، وصيصتها التي تنسج بها، فلما رجعت فقدت عنزاً من غنمها، وصيصتها التي تنسج بها، فرفعت يديها إلى السماء، واستقبلت الدعاء، وقالت: اللهم – اسمعوا لكلام الصادقين والصادقات، اسمعوا لحار دعواتهم، وثقوا بالله لما عظُم يقينهم، وزاد إيمانهم،

فأعظم بها من دعوات ! وأكرم بها من إجابات ! - رفعت يديها إلى الله وقالت: اللهم إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه، وإني قد فقدت عنزاً من غنمي وصيصتي، وإني أناشدك أن ترد عنزي وصيصيتي، اللهم إني أناشدك أن ترد عنزي وصيصيتي، اللهم إني أناشدك أن ترد عنزي وصيصيتي، وذكر صلى الله عليه وسلم شدة مناشدتها لربها طوال الليل، فما أصبحت إلا وعنزها ومثلها، وصيصتها ومثلها، وهي هاتيك فانطلق إليها فاسألها إن شئت، صدقت يا رسول الله ، وصدقت المرأة، وصدّقها الله، أجاب الله دعاءها، وقضى الله في الصباح حاجتها؛ لأن هذا جزاء الصادقين .

وثالثُ من لو أقسم على الله لأبره : رجلٌ مقنعٌ خرج في جوف الليل، في يومٍ اشتد فيه القحط على أهل المدينة، ودعوا الله سبحانه وتعالى فلم يُفرج عنهم، واشتد عليهم البلاء، يقول محمد بن المنكدر رحمه الله تعالى، وهو من كبار الصالحين : وكنت في المسجد - مسجد الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فدخل رجلٌ مقنعٌ في جوف الليل، وعمد إلى اسطوانة، فأوى إليها وصلى، فقلت: من هذا الذي يتقنع بالليل ؟ ثم اقتربت أسمع إليه، فإذا به يرفع يديه إلى السماء، ويستقبل الدعاء، ويعظم الرجاء، وإذا به يقول : اللهم إنه قد اشتد بالناس القحط، وإني مقسمٌ عليك إلا سقيتهم، فلما سمعت، قلت: هذا مجنون، من الذي يقسم على الله سبحانه وتعالى ؟ لكنه ما زال يرفع يديه بالدعاء، ويقسم على الله رب الأرض والسماء، وهو على ثقة أن يجيبه مولاه ..

إليك وإلا لا تُشد الرغائبُ *** ومنك وإلا فالمؤمّل خائبُ

وفيك وإلا فالسعيُّ مضيّعٌ *** وعنك وإلا فالمحدث كاذبُ

اللهم إنه قد اشتد بالناس القحط، وإني مقسمٌ عليك إلا سقيتهم، قال: فما لبث إلا قليلاً، واجتمع السحاب، ونزلت بركة رب الأرباب، برّ الله سبحانه وتعالى قسمه، وسقى الناس، فوضع يديه، وسلم من صلاته، وانطلق، يقول ابن المنكدر: فعزّ عليّ أن رجلاً من الصالحين في المدينة وأنا لا أعرفه ! فانطلقت خلفه حتى علمت بيته، فلما تعالى النهار، جئته، فإذا به نجار، ينجر أقداحاً له، فدخلت عليه، فسلمت عليه، وقلت : السلام عليك – أصلحك الله – فاستعظمها مني، كيف أني ابن المنكدر الرجل الصالح آتيه وأزوره في بيته ! كانوا ما يرون أنفسهم شيئاً في جنب فضل الله سبحانه، قال محمد بن المنكدر: فقلت : إني قد سمعت إقسامك البارحة بربك، فانظر يا هذا، هل لك في نفقة تغنيك عن هذه الدنيا وتفرغك لما تريد من الآخرة ؟ فقال رحمه الله تعالى : لا، لكن غير ذلك، اسمع يا ابن المنكدر، لا تذكرني عند أحد، ولا تأتيني في بيتي؛ فتشهرني عند الناس، واخرج من بيتي الآن، قال: فقلت : إني أحب أن أراك، قال : تلقاني في المسجد، فلما خرج ابن المنكدر، ما كان من هذا الرجل إلا أن جمع متاعه، وأخذ رحله، وخرج من المدينة وتركها كلها لهم، ما يريد أن يعرفه أحد، ولا أن يسمع بخبره أحد؛ لأنه أسلم وجهه للواحد الأحد، قال: فقال جيرانه : رحم الله ابن المنكدر، أخرج عنا الرجل الصالح، هؤلاء هم الصادقون،

إن الصادق – أيها الأخوة – لا يحب أن يطلع الناس ولو على مثاقيل الذر من عمله، إن الصادق – أيها الأخوة – لا يبالي ولو ذهب كل قدرٍ في قلوب الخلائق له وأنهم اطلعوا على شيءٍ من عمله، فأين نحن من هؤلاء ؟ ومن نحن عند هؤلاء؟ كان سلفنا رحمهم الله تعالى يزدرون أنفسهم؛ لأنهم لا يحبون الشهرة، ولا يطلبون الشهرة، والواحد منا لا يعمل عملاً إلا سمّع به مشارق الدنيا ومغاربها، والواحد منا يفرح بثناء الناس، وما يخاف أن يكون مكراً يمكر الله سبحانه وتعالى به .

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : " ما صدق عبدٌ طلب الشهرة "، فاحذر – بارك الله فيك – واحتقر نفسك في جنب الله، وذمّ نفسك في ذات الله، انظر إلى الصالحين من قبلك كيف كانوا ؟ إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى إمام أهل الكوفة، كان يقول :

خلت الديار فسدت غير مسوّد *** ومن البلاء تفردي بالسؤدد

والإمام الثوري سفيان أمير المؤمنين في الحديث، الذي قال عنه الإمام أحمد : "سفيان الثوري إمامٌ لا يتقدمه في قلبي أحد "، كان يقول رحمه الله تعالى : إنا لله وإنا إليه راجعون، أخاف أن الله ضيّع الأمة لما احتيج إلى مثلي، وهو الورِع الزاهد رحمه الله تعالى .

فأين نحن من الصالحين ؟ كم معنا من قيام الليل ؟ كم معنا من صدقة الخفاء؟ كم معنا مما تقبله الله سبحانه وتعالى منهم من الأعمال واستجابه من

الدعاء ؟ فانظروا إليهم وانظروا إلى أنفسكم، انظروا إلى مالك بن دينار العابد، الذي كان يقول : إذا ذُكر الصالحون، فتفٍ عليّ وأف، اسمعوا لأيوب السختياني الزاهد، الذي كان يقول : إذا ذُكر الصالحون، كنتُ منهم في معزل، بل هذا مطرف بن عبد الله لما قام بعرفة قال : اللهم لا تردّهم من أجلي، وبكر بن عبد الله المزني رحمه الله لما قام بعرفات قال : ما أعظمه وأرجاه من مقامٍ لولا أني فيهم، رحمهم الله، كانوا يزدرون أنفسهم؛ لأنهم هم العلماء، كانوا يزدرون أنفسهم؛ لأنهم هم الأئمة، كانوا يحجبونها عن حب الرياء وطلب الثناء، والبحث عن الجاه، هؤلاء هم العلماء، العلماء إذا علموا عملوا، وإذا عملوا شُغلوا، وإذا شُغلوا فُقدوا، وإذا فقدوا طُلبوا، وإذا طلبوا هربوا، هربوا من الناس، وهربوا من ثناء الناس، كانت هذه حركاتهم، ولأجل هذا كلماتهم، إذا أُعجب أحدهم بنفسه قام وترك المجلس، وأخفى عبرته عن الناس؛ لأنه ما يرجو بها إلا رب الناس .

أما نحن – أيها الكرام – فكما قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى : كنا مع أناسٍ يراءون بأعمالهم، فصرنا بناسٍ يراءون بما لا يعملون ! هذه حقيقتنا؛ الواحد منا كبيرٌ في نفسه، ولعله عند الله لا يساوي جناح بعوضة، الواحد منا مغرورٌ بطاعاته، ولعل الله سبحانه وتعالى ما تقبل منه عمله، وكتبه من أهل الفجور، فنعوذ بالله من الغرور، نعوذ بالله من الغرور .

أيها الأخوة، اقرؤوا هذه الآية، فإذا قرأتموها، فاسمعوا ماذا يقول طبيب القلوب الفضيل بن عياض رحمه الله، كان رحمه الله إذا قرأ قول الله تعالى : {وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ }محمد٣١، قال : اللهم تبلو أخبارنا، اللهم إن بلوت أخبارنا، فضحتنا وهتكت أستارنا وأنت أرحم الراحمين، فاسترحموا الله برحمته، واستروا عيوبكم بطلب ستر الله وعفوه، فأيّ شيءٍ نحن إن لم يرحمنا الله؟ { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{٥٠} وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } الذاريات ٥٠ - ٥١، { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً{٤٩} انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً }النساء٤٩ - ٥٠.

أيها الكرام، إياكم أن نكون ممن أصابته هذه الآية {لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }آل عمران١٨٨، اصدقوا الله سبحانه وتعالى يصدقكم، اصدقوا الله سبحانه وتعالى يكن معكم .

أخي في الله، إياك أن تفرح بمدح الناس، إياك أن تفرح باجتماع الناس عليك، كلما جاء الواحد منا فُتحت له الأبواب، كلما جاء الواحد منا صُدر في المجالس، كلما جاء الواحد منا مشى الناس في عقبه، وما يدريكم ؟ لعله استدراج من الله سبحانه وتعالى، فاتقوا الله عز وجل، صُدّر أحدنا حتى صار خطيباً، وصُدّر أحدنا حتى صار إماماً، وصُدّر أحدنا حتى صار معلماً ويثني

الناس عليه خيراً، فإياكم أن نكون ثناء منشوراً وعيباً مستوراً، ويكشف الله سبحانه وتعالى ما تحت الستور، ويخرج الله سبحانه وتعالى ما في الصدور .

أيها الأخوة، غزا رجل مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلما جاء قسمه من الغنيمة، أرسله رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليه، فجاء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وقال : ما هذا يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (هذا قسمك من الغنيمة أرسلت به إليك) قال : يا رسول الله، ما على هذا قاتلت معك واتبعتك، إنما قاتلت -يا رسول الله- على أن يدخل سهم من هاهنا - وأشار إلى حلقه- ويخرج من هاهنا؛ فأموت فأدخل الجنة، فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (إن يصدق الله يصدقه) فما لبثوا إلا قليلاً، ثم قاموا لقتال الأعداء، فجاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قتيلاً، أصابه السهم في الموضع الذي أشار، برّ الله دعاءه، وأجاب الله رجاءه، وصدّقه الله سبحانه وتعالى من فوق السماء، قال عليه الصلاة والسلام : (أهو هو ؟) قالوا : نعم يا رسول الله، فكفنه في جبته، ثم صلى عليه، ودفنه بيده، وقال : (اللهم إن عبدك هذا خرج مهاجراً في سبيلك، ومات شهيداً، وأنا على هذا شهيد، ومات شهيداً وأنا على هذا شهيد) ففاز بالشهادتين؛ شهادة في سبيل الله، وشهادة على هذا من عند رسول الله؛ فلنكن منهم، ولنتسابق إلى ما تسابقوا إليه، فما بيننا وبين الجنة إلا

قنطرة واحدة نسلكها بالصدق مع الله، ما بيننا وبين الجنة إلا قنطرة واحدة نتخطاها إذا أخلصنا أعمالنا لوجه الله .

وعلى عُجالة ـ أيها الأخوة ـ من أراد منكم أن يتقبل الله دعاءه، فليدعُ كما أمر الله، ليدعُ رغبة ورهبة، ليدعُ وهو موقنٌ بالإجابة، يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما عند الترمذي والحاكم : (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب دعاء قلبٍ لاهٍ غافل)، لندعو الله سبحانه وتعالى، ولنعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه، لندعو الله سبحانه وتعالى ولنجزم المسألة؛ فإن الله سبحانه وتعالى لا مكره له .

إذا أردت – أخي في الله، أن يتقبل الله دعاءك، فأطب مطعمك تُستجب دعوتك، ادعُ الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته، توسل إلى الله باسمه الأعظم، قل : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤًا أحد؛ دعا بها رجل، فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (لقد دعا باسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب)، قل : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، يا منان، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، توسل إلى الله بضعفك وعجزك وقلة حيلتك، واسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل دعوتك.

أخي الكريم، إذا أردت أن تُقبل دعوتك فإليك هذا التوجيه النبوي الكريم، يقول صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء في الرخاء) أكثر من الدعاء في ثلث الليل الآخر، حين ينزل الله سبحانه وتعالى وينادي عباده : (من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له) أكثر من الدعاء في الساعة الأخيرة من يوم الجمعة، ساعة لا يسأل عبدٌ مسلمٌ فيها الله إلا أعطاه الله سبحانه وتعالى مسألته، أكثر من الدعاء وأنت ساجد، وأقرب ما تكون من الله وأنت ساجد، وقمن أن يُستجاب لك، أكثر من الدعاء بين الأذان والإقامة، أكثر من الدعاء عند نزول المطر، أكثر من الدعاء إذا كنت صائماً، واسأل الله عز وجل أن يجعلك من أمثال هؤلاء .

أيها الأخوة الكرام، ألا فاعلموا أن الإقسام على الله على ثلاثة أقسام :

فأما الأول : فقسمٌ على خبر الله تعالى وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم، كأن يقول الواحد منا : والله لا يغفر الله لمن أشرك به، وهذا حق وصدق، وهو من اليقين على كلام الله وعلى كلام رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

والقسم الثاني : أن يُقسم الرجل على الله أن يفعل الله كذا أو لا يفعل كذا، فهذا إذا خرج من افتقار وصدق التجاءٍ إلى الله ، وحسن ظنٍ وثقةٍ بالله، كان ممن لو أقسم على الله لأبره .

وأما القسم الثالث : فمن يُقسم على الله، وهو يدلي بعمله، وهو يمن بحسناته، يقسم على الله، وهو ينظر إلى حسن عمله، ولا ينظر إلى حسن رجائه بالله، فهذا أمره خطير، وهو من المحرمات، وهاكم خبر رجل أقسم فقال : والله لا يغفر الله لفلان، فأحبط الله عمله بكلمةً أوبقت دنياه وأخراه .

فنسأل الله الكريم رب العرش العظيم – كما جمعنا وإياكم في هذا المجمع المبارك – أن يجمعنا وإياكم في دار كرامته، وأن يجمعنا وإياكم على حوض رسولنا صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

اللهم إن في هذا المقام قلوباً تشتاق إلى لقائك، وألسناً تحدث عنك، وأعيناً تشتاق إلى النظر إلى وجهك الكريم، اللهم فلا تفرق هذا الجمع إلا بذنب مغفور، وسعي مشكور، وعمل صالح متقبل مبرور .

اللهم بدعوة رجلٍ ضعيفٍ متضعف، تجيب قسمه وتجيب دعاءه، ارحم من حضر في هذا المسجد جميعاً، واغفر لنا جميعاً، ولا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا هماً إلا فرجته، ولا شاباً إلا صلحته، ولا تائباً إلا قبلته، ولا مظلوماً إلا نصرته، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، الله آتِ نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها .

اللهم إنا نسألك يا رحمن برحمتك أن تكتبنا جميعاً مع الصادقين، اللهم إنا نسألك يا رحمن برحمتك أن تجعلنا جميعاً من المتقين، اللهم إنا نسألك يا رحمن ثقةً وإجلالاً لجلال وجهك، وإيماناً بعظيم سلطانك، ونعوذ بك وبوجهك

الكريم أن تخزنا يوم يُبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

أيها الأخوة، ها قد سمعتم ما سمعتم، فاصنعوا لكم أخباراً كأخبارهم، وسيروا على منهاجهم، وأكثروا من أعمال السر، فبها تتزينون، يوم العرض الأكبر على الله سبحانه وتعالى رب العالمين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك .